وأهل الدار[1] وطلبة الحضر[2] وطلبة الموحدين[3]، وكلّ من هاته الطبقات لها مركزها الخاص بها، ومن هؤلاء تتكون إطارات «المملكة الخلافية»[4] في شتى الميادين فمنهم في الأغلب الكتاب على اختلاف درجاتهم، والعمال والقضاة والأمناء والسدنة والمزاوير والمشارف، والمقدمون وأصحاب الزمام[5]. وقد كانت ولاية العهد لا تخضع عندهم إلا لشرطين اثنين: الكفاءة والصلاح، ولهذا فمن الممكن ان لا يحجم الخليفة في إقصاء ولي عهده وتبديله بآخر متى ظهر أنه غير مصيب في ترشيحه الأول[6].

وكانت الدولة تعتمد في مداخيلها على الزكوات التي يؤديها المسلمون عن طواعية سواء على حرثهم أو ماشيتهم[7]، وكذا على الجبايات والخراجات والأعشار، وعلى الغنائم الحربية والجزية والمصادرات[8].

ونتيجة لهذا كانت أسلاك الموظفين - وجلهم جند - تتقاضى « بركة » كل رأس شهر[9] وعند كل مناسبة[10]. وكانت هذه البركة كريمة في كثير من الأحيان، فلقد بلغ عطاؤه ذات مرة لجنده زهاء نصف المليون من الدنانير الموحدية[11] ونتيجة لهذا وذاك انتشر الأمن في البلاد فأصبح المرء لا يخاف إلا الله أو الذيب[12].

(1) صفحة 348
(2) صفحة 84 - 79 - 213
(3) صفحة 21 - 22
(4) صفحة 328
(5) صفحة 64 - 91 - 164 - 279 - 297 - 309 - 358 - 371 - 373
(6) صفحة 77
(7) صفحة 64 - 139 - 214 - 280
(8) صفحة 41 - 61 - 90 - 130 - 148 - 219 - 341 - 361 - 383 -
(9) صفحة 286
(10) صفحة 280 - 299
(11) من المعلوم أن وزن الدينار الموحدي ذهباً أربعة غرامات و 729 ميلي كرام، فإذا ضربت هذا العدد في نصف مليون دينار وجدت الوزن الذهبي الذي نكشف لنا قيمته اليوم بالعملة الحالية « البركة » الممنوحة ومقدارها ثلاثة عشر مليوناً ومائة وثلاثة وتسعون ألفاً وتسعمائة وعشرة دراهم مغربية. راجع صفحة 280-299 مع صفحة 309
(12) صفحة 139

وكان في أبرز ما يُعرف به الموحدون التكثير من اتخاذ «الطبول»[1] ولا يتعلق الأمر في نظرنا باستعمالها للإيذان بنشوب الملاحم فقط لصك أسماع الخصوم[2]، ولكن أيضاً - كما تدل على ذلك نصوص الكتاب باستعمالها عند أوقات البشرى والمسرات والطرب[3]، وقد اتخذت الطبول مختلف الأحجام والأشكال ففيها المربع الذي يرجع لعهد المهدي[4]، وفيها المستدير الكبير[5] كذلك.

وقد كان اللون السياسي والأساسي للأمبراطورية الموحدية هو البياض[6] بيد أنهم اتخذوا اللون الأحمر للقبة التي يقيم فيها الخليفة[3] كما أنهم عمدوا الى اتخاذ أعلام ثانوية أربعة ملونة بالأحمر والأبيض والأصفر، وحملوا بها أركان خزانة المصحف العثماني[8] عند الدخول الى مدينة الرباط وقد كانت أدوات الحرب المستعملة إذ ذاك تتمثل في السيوف والقسي والرماح والترسة، والبيضات[9]، كما أن اللباس الشائع للجند يقتصر على الأكسية والغفائر والبرانس والقطنيات والعمائم والمقاطع، أما العبيد فيلبسون ثياباً مصبغة الألوان[10]، وللعسكرية بما فيها من جند نظامي أو حرس وعبيد ديوان في منتهى الضبط يسهر على إحصاء الجند ومعرفة حاجاته المتجددة[11].

ومن عادة رجال الحكم في الأمبراطورية الموحدية أنهم لا يأتون عملاً مهما إلا إذا جمعوا « الطبقات » و « الهيئات » من أجل الاستشارة، وهكذا فهم لا

(1) صفحة 112 - 143 - 147 - 348 - 351 - 367
(2) صفحة 134
(3) كما وقع مثلاً عند استقبال بعض السادة وعند الإبتهاج بإنجاز جران الماء بإشبيلية ص 143 - 144 - 324 - 361
(4) راجع صفحه 290
(5) صفحه 359
(6) صفحة 301
(7) صفحة 348 - 358
(8) صفحة 304
(9) صفحة 63 - 75 - 102 - 143 - 243
(10) صفحة 144 - 242 - 299 - 308
(11) صفحه 206 - 288 - 311

يقدمون على غزوة إلا بعد أن يقرر المجلس الحربي ذلك ، كما أنهم لا يقومون بتشييد منشآت في الدولة إلا بعد أخذ رأي الأعيان في ذلك[1] ، وكانت موافقة الشعب على القرارات المتخذة من طرف الدولة تتحل في شكل رسائل تمهرها الطبقة الواعية في البلاد وتبعث بها إلى السادة[2] .

ومن عادة الموحدين دائماً في حركاتهم ان يخصص الخليفة يوماً أو أياماً يقوم فيها باستعراض سائر القبائل المتقدمة للغزو سواء من العرب أو من الموحدين ، ويسمون هذه العملية باسم « التمييز » تتقدم قبيلة هرغة وتينملل وهنتاتة وكدميوه وجنفيسة ، ويتقدم من العرب بنو زغبة والهلاليون والرياحيون والجشميون[3]

كما أن من عادة البلاد أن تتجمع لاستقبال الخليفة أو توديعه إظهاراً للطاعة وتعبيراً عن المحبة وكثيراً ما يسمون هذا بالتبريز ، لا يبقى من أعيان البلاد وأدبائها وشعرائها من لا « يبرز » للتملي والتبرك[4]

وإذا كان الباحثون قد تلقفوا بإعجاب المعلومات التي أعطاها المراكشي في المعجب عن عادات الموحدين في إقامة الجمعة[5] والمعلومات التي أعطاها صاحب الحلل الموشية عن ترتيب السفر فإنهم سيشعرون بمتعة زائدة وهم يقرأون عند ابن صاحب الصلاة « التشريفات » الخاصة بمناسبة الأعياد[6] ، والحفلات[7] وبمناسبة تنصيب العمال الجدد ، وعند خروجه للغزو وتلقي البيعة ، وعند أداء اليمين من الأنصار الجدد . . وكذا جلوس الخليفة في الصباح المبكر بمجلس التهنئة ، وتقديم الوزير الحاجب للاشياخ والكبراء وأبناء الجماعة وطلبة الحضر والفقهاء والقضاة والكتاب والولاة والشعراء وكذا عند الضيافات الخليفية

(1) انظر صفحة 17 - 78 - 79 - 122 - 142 - 142 - 261 - 353 - 365 - 379
(2) انظر صفحة 379
(3) ص 151 307
(4) ص 309
(5) المراكشي : المعجب ، طبعة القاهرة ، ص 343 - 344 . الحلل ص 127-128.
(6) ص 313 - 314
(7) ص 292 - 301

الفخمة التي كانت تجري في بحيرة مراكش بل والعادات عند ما يلازم الخليفة الفراش .

إن الخليفة في استقبالاته للعرب الوافدين من أفريقية ، خرج وتتقدمه زهاء مائة طبل ، وقد ركب على صهوة فرسه الأشقر وحاجبه ووزيره يمشي على قدميه بين يديه ، وعلى مقربة من فرس الخليفة أخوه الأكبر وإلى جانب الأخ الأكبر سائر الأخوة ، ثم الأمراء الصغار وفي ساقته ست عشرة راية من كبار البنود . . . وتدوم الضيافات نحواً من نصف الشهر يتهالك فيها الواردون على شراب الرب ، أما عند تعب الخليفة فإن الاستقبالات تمنع ويقتصر على الأتصال به حاجبه ووزيره الأول بالأضافة إلى هيئة الأطباء التي تسهر على صحته[1] .

وكان من عادة الدولة كلما ظهرت مناسبة جديدة أن تشعر سائر المواطنين بظروف الحادث ولذلك فهي تقوم بإطلاق سراح جل المعتقلين والمخالفين ، وتغدق من خيراتها على الضعفاء والمحتاجين ، والخليفة بمناسبة شفائه ، وبمناسبة قدوم العرب من أفريقية منح « البركة » الموحدين والعرب وسائر الأجناد بما فيهم الرماة والرحالة[2] .

والخلفاء الى جانب هذا أخذوا على عاتقهم أن يقمعوا بشدة كل وال أو مسؤول يبدو عليه التعنت والأنحراف والزيغ ولو كان هذا الوالي أقرب الناس اليهم ، وقد يلجأ الخليفة الى تحويل الولاة من مكان إلى مكان ، ويسمح لكل من له شكاية أن يعلن ذلك على مرأى ومسمع من الناس بمحضر الخليفة إثر صلاة الجمعة وذلك ليتمكن الخليفة من متابعة قضيته وإنصافه إن كان يستحق الأنصاف[3] .

ومن ثنايا الموضوعات التي عرض لها الكتاب نقف على ناحية أخرى من حياتهم ، تلك سياستهم حيال الثوار الأندلسيين ، وحيال القادة كذلك من

(1) صفحة - 5 - 23 - 142 - 147 - 280 - 281 - 291 - 292 - 294 - 314 - 313 - 314 - 328 - 329 - 385
(2) صفحة 208 - 310 - 311 - 311 - 213 - 214 - 218 - 283 - 293
(3) صفحة 43 - 281 - 255 - 256

الأسبانيين ثم معاملتهم لعرب أفريقية ، لقد كانوا في طابعهم العام أصدقاء حلفاء لمن يعرض عليهم صداقته ووفاءه ، كما أنهم كانوا يناصبون العداء لكل من يحاول أن يمس من مركزهم ، وإذا ما عفوا أو صادقوا فإنهم يسون كل ما مر بالأمس القريب[1] . ورد عليهم فرناندو رودريكيز (Fernando Rodriguez) صاحب ترجالة يعرض عليهم السلم والصلح فرحبوا به بل واستصفوه في العاصمة : مراكش نحواً من خمسة أشهر[2] ، وورد عليهم فرناندو الثاني صاحب ليون (Fernando II) يطلب النجدة ضد ابن أخيه فأجابه الخليفة لمطلبه وبعث معه بأفضل عناصر الجيش الموحدي[3] ، وأرضى كذلك رغبة إبراهيم بن همشك ، الذي أمسى صديقاً مقرباً للدولة[4] ، وتطارح هلال بن مردنيش فاستقبله بل وأنزله في القصور الخليفية وقبل منه هداياه[5] ، وبالإضافة الى هؤلاء قبل محالفة القومس نونيه (Nuno) صاحب طليطلة ، ثم ابن الرنك[6] (Enriquez) وقد كان يستفيد من حلف هؤلاء في الدلالة على نقاط الضعف في الجهات التي لم تستسلم بعد [7]

أما موقفهم مع أعراب أفريقة ، فقد ظلوا - على العموم - حريصين على مجاملتهم ومشيدين بأواصر «القربى» التي تجمعهم في قيس عيلان ، وبالرغم من بعض المؤاخذات التي يسجلها ابن صاحب الصلاة على العرب في بعض المواقف[8] فإننا نجد الخليفة يخرج بنفسه لاستقبالهم بظاهر المدينة في يوم مشهود

(1) صفحة 223 - 325
(2) أنظر صفحة 230 من المن بالإمامة
(3) راجع صفحة - 231 - 233
(4) صفحة 249 - 250
(5) ص 327 - 373 - 376
(6) ص 387 من المخطوط
(7) صفحة 265
(8) لم يفت ابن صاحب الصلاة أن يسجل بعض « الهفوات » التي بدت من العرب ، بل وانه ليفهم منه أحياناً وسمهم بالفوضى واللامبالاة : فلقد عتب على « الجهال من الأعراب تحرمهم بالأحزاب » كما يسجل عليهم أيام « التمييز » أنهم كانوا لا يهابون أحداً ولا أمراً وإنهم كانوا يتهافتون على الثياب دون احترام للمقام ، هذا الى ما أتسم به يومهم عندما أرادوا اجتياز قنطرة=

على أفضل تبريز ، ونراه كذلك يقدمهم عند التمييز ويؤثرهم بأجمل العطاء [1] .

وكان الموحدون أكثر الناس استعمالا للحيل الحربية ، فقد يختلقون « الرسائل » وقد يتجاهلون بعض الأشياء حرصاً على الوصول الى الحقيقة [2] ومن مناهجهم الاعتماد على « الجواسيس » الذين يختلطون بالأصدقاء والأعداء على السواء لينقلوا أو يبثوا ما فيه المصلحة للدولة علاوة على سلك التراجمة الذين لا تخلو منهم أجهزة الحكومة[3] ولكثر ما كانوا « يتحيلون » طلت بعض المواقف الحربية منهم غير مفهومة المغزى [4] وكانوا - وهم يغارون على سمعة الدولة - لا يترددون في فكاك أسراهم أو المحاصرين من أنصارهم مهما كان الثمن وقد وصلت قيمة فداء الشخص الواحد الى ثلاثمائة دينار[5] كما بلغ الإمداد للبلدة واحدة في مرة واحدة خمسة آلاف دابة[6] ، والمعتاد عند الموحدين في كل غزوة يقرروها انهم يمهدون لوصول الجيش بإرسال كتائب للاستطلاع والمناورة [7] .

النشاط الفكري :

وإذا كانت الحياة الأدبية على عهد المرابطين قد استهدفت بتهجمات بعض رحالات الاستشراق[8] ، فإن ما يوجد ضمن هذا المخطوط من منظوم ومنثور

= أم الربيع من « تراحمهم وتقاتل وهنة . . . » ثم ما ظهر على العرب عند قصد (وسنة) « من رواح وميل » وما ظهر عليهم عند الانصراف منها من « جس عن اللقاء والدعوى بأن حرمهم تحتاج الى انفساح في الأرض » ! راجع صفحة 294 - 296 - 297 - 304 - 347 - 365

(1) صفحة 292 وصفحة 297 - 299
(2) انظر صفحة 3 - 124 - 243 - 264
(3) أنظر صفحة 3 - 264
(4) لقد دعى الموحدون للصلح في موقعة وبدة في ظروف عصيبة بالنسبة لهم بحيث لم يكن من المتوقع ان يرفضوا العرض أولاً وثانياً وثالثاً ولكنهم فعلاً أبوه وأكيد أنهم كانوا يعتمدون على « حيلة » في هذا الرفض راجع صفحة 3 - 126 - 353 - 357
(5) ص 91 - 254 - 308
(6) ص 258
(7) أنظر صفحة . 121 - 187 - 260 - 236 - 346
(8) Provençal : Conférences sur L'Espagne Musulmane , Caire 1951, pp 17-18

أيام الموحدين لما يؤكد أن تلك «التهجمات» كانت خاطئة حيث أن هذا التراث ـ كما نعتقد ـ ليس إلا «استمراراً» لازدهار أدبي عرف الحياة في أحضان الدولة الذاهبة .

وقبل كل شيء نستعرض قليلاً هذه المجموعة الجديدة من «الرسائل الموحدية» التي استأثر بها[1] كتاب المن ، فعلاوة على قيمتها التاريخية ، فإنها تعتبر بحق من أجمل الآثار الأدبية المغربية الرفيعة ، وهذه الرسائل وإن كانت في مجموعها لا تخرج عن الوصف الذي أعطاه لها صبح الأعشى[2] لكنها أحياناً تخالف القاعدة بعض المخالفة[3] ، ولقد اسهم في هذا التراث : تراث الرسائل ، عبد المؤمن نفسه وابنه أبو يعقوب ، ثم الكاتب عبد الملك بن عياش وأبو القاسم المواعيني وأحمد بن محمد والكاتب ابن مصادق[4] .

وإلى جانب هذا الأثر الأدبي المنثور يتضمن المن بالإمامة ديواناً من الشعر المتين السليم شارك فيه كل من عبد المؤمن وابن حبوس وابن سيد المالقي، وابن المحل الشلبي وأبي العباس اللص والشاعر الطليق وأبي الحسين ابن صاحب الصلاة وأبي الوليد الشواش ، وابن المنيفر وابن ميمون واليكي وابن حربون وأبي عبد الله الشاطي وأبي مروان بن صاحب الصلاة والمواعيني وابن طفيل

* أحمد بلا فريج عبد الجليل خليفة : الأدب الاندلسي ص 70 - 72 محمد رضا الشبيبي : أدب المغاربة والأندلسيين دكتور جودت الركابي : في الأدب الاندلسي

(1) نشر الأستاذ بروفنصال مجموعة رسائل موحدية عثر عليها في المغرب وأضاف إليها رسالة نقلها من صبح الأعشى للقلقشندي .

(2) يذكر القلقشندي ان الرسائل الموحدية على اسلوبين : الأول ان تفتتح المكاتبة بلفظ من فلان الى فلان ، والثاني ان تفتتح بلفظ أما بعد : أما الأول فكان الرسم في المكاتبة أن يقال : (من امير المؤمنين) ويدعى له بما يليق به ثم يؤتي بالسلام ويؤتي بالبعدية والتحميد والصلاة على النبي ﷺ والترضية على أصحابه ثم على امامهم المهدي ثم يؤتي بالمقصود ويختم بالسلام ، والخطاب فيه بنون الجمع عن الخليفة وبميم الجمع عن المكتوب اليه ، هذا وكثيراً ما تذكر في صلب الرسالة الجهة التي صدرت منها كما انه كثيراً ما لا يغفل عن ذكر التاريخ : صبح الأعشى مجلد سادس ص 443 ـ بروفنصال : رسائل موحدية صفحة حـ : د .

(3) أنظر صفحة 10 - 15 - 198 - 201 - 251

(4) أنظر صفحة 4 : 8 - 128 - 154 - 164 - 180 - 183 - 198 - 201 - 204 - 207 - 215 - 219 - 222 - 237 - 251

وابن عياش وأبي الحكم البلنسي[1] ، وأكثر هذا «الشعر الرسمي» متأثر بالأسلوب والوزن المعروفين في المشرق على عهد أبي تمام والمتنبي ، فجلّه من بحر الكامل والطويل والبسيط ، ومع هذا ففيه أوزان أخرى كالوافر والمتقارب والخفيف ، وجلها كذلك يدور حول الشعر السياسي والمدح وإن كان فيه كذلك ـ بقلة ـ التغزل والتشوق والهجاء ، والفرق الوحيد بين قصائد المدح لدى المتنبي مثلاً وقصائد هؤلاء الشعراء أن هؤلاء يتحسون بداية مدائحهم بالتشبيب وذلك تأثراً بالظروف التي تعيشها «الدولة المهدية» . وقد كانت الدولة تغدق على الأدباء والشعراء والمؤرخين من أموالها وكان يخصص لهم من الجوائز السنية والهبات الجزلة ما كان يذكي من حماسهم ويقوي من نشاطهم[2] علاوة على مساهمة الحاكمين أنفسهم في النقد والتوجيه[3] ، ولكثر الأنتاج نجد أن الوقت يضيق في بعض الأحيان عن سماع الكل وأن الجوائز العظيمة تقسم على ثلاث طبقات[4]

وإذا انتقلنا من ميدان الرسائل والقصائد الى الميادين الأخرى حول النشاط الفكري فسنجد أن الأمبراطورية كانت تنعم بسلك هام من الأطباء والصيادلة[5] والفلاسفة والفقهاء والفنانين والمهندسين والموسيقيين[6] فقد عاش ابن رشد وابن زهر وابن طفيل وأضرابهم من العلماء يترددون على المجالس سواء داخل القصر أو خارجه بل أنهم كانوا يشاركون في المغازي والحملات[7] .

(1) انظر صفحة -5- 6 - 9- 12 - 24 - 12 - 24 - 27 - 30 - 33 - 36 - 64 - 71 - 83 - 95- 98 - 101 - 107 - 109 - 112 - 115 - 117 - 118 - 136 - 141 - 153 - 154 - 158 - 188 - 191 193 - 194 - 201 - 212 - 213 - 223 - 226 - 245 - 274 - 284 - 311 - 314

(2) صفحة 8 - 38 - 111 - 140

(3) أنظر صفحة 29 - 33 - 110 - 226

(4) صفحة 385 - 386

(5) إقرأ صفحة 45 مادة (المحمودة)

(6) كانت الطبول تضرب على المسرات وعلى الطرب كما يوجد في النص ومن غير المعقول ان تكون المسرة بمجرد نقرات هوجاء : راجع تعليق رقم 20 صفحة 24، راجع صفحات 7 - 292 - 348 من المن بالإمامة

(7) أنظر صفحة 79 - 273 - 350 - 359 - 360

وقد كثرت المجالس العلمية على عهد الموحدين ، ومن الطريف أن نتعرف على حلقة من حلقات الدرس في ذلك العهد حيث يتلو السادة فقرات من المتن ثم يردفها الشيخ بشرح لما غمض من النصوص[1] ، وكثيراً ما نقف على أن الخليفة كان يقف بنفسه على اختيار التلاميذ وامتحانهم[2] وقد عرف المشايخ أياماً للعطلة يستروحون بها ويتخلصون من عناء الكد بحيث كان لهم يوم خاص بالنزهة والراحة[3] .

وازدهرت على هذا العهد الخزانات العلمية وكثر اقتناء الكتب وانتساخها وسواء في ذلك الخزانات الخاصة أو خزانات الدولة[4] وقد كثر كذلك الاشتغال بالتنجيم وعلم الهيئة ، الأمر الذي ينبيء عنه تلاعب الشعراء والناثرين بالعبارات الفنية الخاصة بعلم الفلك[5] ، وكانت اللغة المستعملة طبعاً كما تشهد بذلك الرسائل الديوانية وما أثر من شعر هي اللغة العربية لكن الموحدين - وهم يهيمون بإيثار الفائدة العاجلة - كانوا لا يتهيبون الاستعانة باللسان الغربي - كما يسميه المؤرخون القدامى - من أجل إفهام القوم في الوقت المناسب بما يروج في الدنيا[6] .

وكان من رأي الموحدين - على العموم - أن لا يحجروا على الناس في تفكيرهم ، ولذلك فقد ازدهرت الفلسفة وارتفعت رؤوس المفكرين في كل

---

(1) انظر صفحة 85

(2) انظر صفحة 146

(3) راجع صفحة 152-153

(4) ص 152 - وص 335 . محمد العابد الفاسي : الخزانة العلمية بالمغرب ص 12 .

(5) ص 18 - 97 - 135 - 185 - 192 - 209 - 212 - 336

(6) يحيل إلى أنهم كانوا يعيشون تقريباً نفس الظروف التي نعيشها نحن في مشروعات التعريب ، فإننا عوض ما ننتظر تعلم الناس كلمة « الهاتف » لا بد أن نستعمل كلمة التليفون ... وهكذا فإن الموحدين وحلهم كما أسلفنا محدد ، كان من غير اللائق أن يخاطبوا في ساحات الوعي أو في مقامات الجد بلغة لم يتعلموها بعد ، فكان استعمال اللسان البربري أدنى بوحي من إرادة الفائدة العاجلة . انظر صفحة 143 - 357

راوية[1] ، بل إن أفقههم كان لا يضيق عن سماع النقد[2] ، وهم مع هذا يحرصون كل الحرص على أن يحلوا رحال الفكر والعلم ، يستقبلونهم في صدر ما يستقبلون ، ويؤثرونهم على غيرهم في الولايات والتكريمات والظهائر السامية[3] .

الازدهار الاقتصادي والمعماري :

والمتتبع للكتاب سيمكنه أن يقف على المنشآت الاقتصادية على العهد الموحدي ، وإن في أول ما نقرأه في هذا السفر الثاني الوصف الدقيق والفريد كذلك لمدينة جبل طارق التي كانت مضرب المثل وفاقت كما يقول ابن صاحب الصلاة قصور الخورنق والسدير ، لقد تضافرت عليه جهود المهندسين المعماريين سواء منهم من ورد من المغرب أو الأندلس كالحاج يعيش وبُرار ، ابن باسة[4] ، واستنفروا جميع العملة من البنائين والنجارين والعرفاء والاختصاصيين في الغراسة ، وهكذا أمسى الجبل بعد بضعة شهور فقط جنة فيحاء تشتمل على « جميع الفواكه » : التين ، والعنب والتفاح والكمثري والسفرجل والمشمش والإجاص والأترج والموز وغير ذلك إلى ماء عذب زلال سلسال » . لكن الذي يلفت النظر أكثر من كل هذا إن المهندس الحاج يعيش « صنع في أعلى الجبل رحى تسير بالهواء لطحن الأقوات فأعطى بذلك مظهراً من مظاهر النهضة الميكانيكية[5] ، وبعد جبل طارق كان بناء مدينة « المهدية »[6] (رباط الفتح) وما تزال آثارها إلى الآن شاهدة بعظمة الموحدين واستطاعوا أن يجلبوا إليها الماء من مكان بعيد حتى تتوفر فيها شروط الراحة ورودوا المدينة بقنطرة هامة ربطت الصلة بينها وبين

---

(1) ظل كل من ابن رشد وابن زهر وابن طفيل متنقلاً بين الأندلس وفاس ومراكش وظلوا في مجلس الخليفة يثيرون أسمى النظرات وأدق المشاكل . المعجب طبعة القاهرة ص 242 . الدكتور محمد عزيز الحبابي : مفكرو الإسلام ص 186 , 167

(2) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص 351

(3) صفحات 257 - 288 - 375

(4) Dr. Renaud . Les Ibn Baso p.1 , Hespéris . Tome XXIV, Année 1937

(5) صفحة 18 - 19

(6) صفحة 305

مدينة سلا ، أما مراكش العاصمة فقد نالت من عنايتهم الشيء الكثير نظراً لكون الاستقبالات و « التمييزات » الرسمية كانت تجري في قصر دار الحجر ، والمدينة الثانية وفي البحيرات التي كانت تسع أزيد من ثلاثة آلاف[1] . وفي الأندلس أعادوا الحياة من جديد إلى مدينة قرطبة وجندوا البنائين والفعلة لبنيان قصورها ودورها[2] ، ثم اتجهوا نحو أشبيلية فشيدوا فيها معالمهم الأثرية التي طبقت شهرتها الآفاق ، فالقصور الموحدية هناك ، والجسر العظيم ذو القنطرة العظيمة الهندسة الممسوكة بالمراكز والتي كانت تربط بين المدينة وقرية الشرف المجاورة لها ، وقصبة أشبيلية الداخلية « والبرانية » وبناء الأسواق المختلفة كل هذا نقرأ عنها الكثير في المخطوط[3] ، لكن المعلومات التي انفرد بها ابن صاحب الصلاة بحق هي المعلومات الدقيقة المتعلقة بالمسجد العظيم باشبيلية بما يحتويه من منبر ومقصورة[4] وصومعة فلقد ظل مجهولاً اسم ابن باسة المهندس العربي الذي أشرف على بناء المنارة ذات السمعة العالمية حتى كشفت عنه صفحات المن بالإمامة ، وظل مجهولاً كذلك أن مدينة فاس ومراكش اسهمت كل منهما في بناء جامع أشبيلية .

ونصرف النظر عن مبانيهم وصناعة الغراسة[5] وتسريب الماء وبناء[6]

(1) صفحة 143 - 209 - 294

(2) صفحة 64 - 65 - 66 - 68

(3) ص 89 - 90 - 91 - 318 - 320 - 336 - 337 - 340

(4) لم يتحدث المؤرخون عن وصف المقصورة ومن المؤكد انها كانت على نحو المقصورة بالمغرب التي كانت تسع نحو ألف شخص وكانت تتحرك بواسطة عجلات تثبت في أسفلها وقد صنعت هذه العجلات بحيث لا يترتب عليها عند تحريكها أقل صوت بل تدور جميعها في أتم سكون ونظمت الحركات بطريقة هندسية دقيقة بحيث تتحرك جميعها في وقت واحد متى رفع الستار عن أحد البابين اللذين يدخل منهما أمير المؤمنين الى المسجد وكانت المقصورة تبرز من جانب ويبرز المنبر من الجانب الثاني وتلتف الجوانب في نفس الوقت حول مجلس امير المؤمنين
المن بالإمامة ص 333 - 336 المنوني ص107

(5) جاء في أحد المقاطع : انهم جلبوا من أنواع الزيتون المختارة من الألوان نحواً من عشرة آلاف وغرست على نسق عاماً بعد عام

(6) انظر صفحة 18 - 90 - 224 - 253 - 306 - 307 - 332

الخزانات لديهم ، نراهم يهتمون اهتماماً عظيماً بالأسطول ، فالموحدون وهم مضطرون للاتصال كل لحظة وحين لربط الصلة بين أفريقية والأندلس ونقل المئات من الجند بين الفترة والأخرى ، ولهذا فإن الكتاب يصور القوة البحرية الهائلة التي كان ينعم بها المغرب في العصور الوسطى ، لقد كانت « القطائع » من مختلف الضروب والأشكال ، وفيها الغراب الطيار وفيها المراكب الثقيلة ، ونتيجة لهذا كانت المصانع منتشرة في كل جهة من جهات المغرب والأندلس[1] وثمت ناحية تشهد حقيقة بحرصهم على العمل على ازدهار الحركة في بلادهم فبالإضافة الى شبكة الطرق التي تضمن المواصلات بين مختلف أجزاء الأمبراطورية في ظروف يسيرة[2]، وبالإضافة إلى عمليات الاحصاء[3] التي أعتادوها لكل مدينة وقرية ، بالإضافة الى ذلك فقد صمموا البريد بشكل بديع وسريع معاً وفي الليل والنهار كذلك وفي البر والبحار[4] ، وإذا كان ابن صاحب الصلاة اكتفى بالإشارة الى القانون الذي يحدد مسؤولية المكلفين بالبريد فإننا نعلم ان الدولة كانت تتحرى جداً في إختيار هؤلاء « الرقاصين » وكانت تمنع عليهم منعاً باتاً الإساءة الى سمعة وظيفتهم الذي يعتبر من أشرف الوظائف[5] .

ولكثرة ما عم الرخاء مرافق الحياة نرى بأن القواعد الحربية الكبرى كقاعدة المعمورة مثلاً تتوفر على جميع ما يمكن ان تحتاج اليه الأساطيل المغربية بل إن المواد الغذائية المخزونة فيها قد تفي دون الحاجة اليها[6] . ويمكنك أن تلاحظ الترف الذي كانت تعيشه البلاد عندما تقرأ عن وصف المصحف العثماني وما

(1) أنظر صفحه - 19 - 20 - 40 - 106 - 110 - 147 - 337

(2) ص 302 - 303 - 304

(3) صفحة 363

(4) كان الرقاص يأخذ مركبه من مدينة سجلماسة سابحاً في البحر فيخرج في المدينة « في أقرب تاريخ دون تعب في مرساه » وربما كان هناك رقاص استثنائي لحمل الأشياء الهامة ، فقد قطع هذا الرقاص في ظرف 30 ساعة المسافة بين كركوي (جنوب طليطلة) وإشبيلية . انظر صفحة 9 - 10 - 52 .

(5) يشير ابن صاحب الصلاة الى رسالة موحدية هامة كان في جملة ما عالجته قضية الرقاصين ، وقد وقفت على نص الرسالة في نظم الجمان لابن القطان بين ورقة 56 (ب) و 65 (أ) أنظر المن بالإمامة ص 161

(6) انظر صفحة 75 - 209

احتواه من جوهر نفيس وزمرد وياقوت أحمر وأصفر وأخضر[1] .

وقد كان أساس العملة الموحدية الدينار الذهبي ، والدرهم الفضي ، وربما أستعمل المثقال الذي له نفس وزن الدينار ، وأستعملت الأوقية التي لها نفس وزن الدرهم[2] ، وإن أهم ما يعطي فكرة عن الرخاء الذي كان يعم البلاد أن نقرأ أن « البركة » التي نفح بها الجنود ذات يوم فاقت بكثير ملياراً من الفرنكات المغربية الحالية[3] .

الحياة الدينية .

وفي كل فصل من فصول الكتاب تشعر بالروح الدينية التي كانت تهيمن على دولة « الطلبة » فهم جميعهم يقومون بالشعائر الدينية في وقتها المعين ، لا يمنعهم سفر أو غزو[4] واعتادوا منذ الأيام الأولى ان يوزعوا القرآن أحزاباً ليقرأوا منه يومياً حصة معينة[5] ، وقد قاموا في كل مكان بتشييد المؤسسات الدينية وترددت كثيراً الألفاظ التي تقترن عادة بشعائر الحج الأمر الذي يدل على امتزاج العقيدة بالناس[6] ولكن فكرة التقشف التي ظهر بها الموحدون أول الأمر والتي أضطرت علماء فاس لطمس معالم المرابطين في جامع القرويين[7] ، ذهبت بموت المهدي ، وأمست المساجد آية من آيات الفن المعماري لا يترددون في الإنفاق على ذلك مهما كان الثمن ، وقد عهدوا بالإشراف على بنود جامع أشبيلية للطبيب ابن زهر[8] ، كما أنهم حلوا بعض المساجد بالنواقيس التي غنموها في

(1) أنظر صفحة 301

(2) 299 - 339 - 363 - 374 - 367

(3) راجع التعليق رقم 16 ص 24 من المقدمة

(4) صفحة 43 - 87 - 280 - 341 - 353 - 325

(5) أنظر صفحة 88 - 349

(6) أنظر صفحة 117 - 120 - 141 - 191 - 195 - 210 - 211

(7) يذكر ابن أبي زرع ان فقهاء فاس خافوا من انتقاد الموحدين على النقش والزخرف الذي يوجد فوق محراب جامع القرويين ولذلك فإنهم طمسوا معالمه ابن أبي زرع الأنيس المطرب طبعة الرباط أول ص 87 التازي تاريخ جامع القرويين طبعة بيروت 1972، 3 مجلدات

(8) صفحة 338 من المن بالإمامة .

بعض حروبهم بعد أن أدخلوا عليها بعض التحويرات الفنية[1] ، وكتاب المن وثيقة تمتع المهتمين بتاريخ التشريع الإسلامي ، فإذا كنا لم نجد أثراً لذكر إحراق كتب الفروع ، فإننا نقف ، على أن الموحدين كانوا لا يأبهون إلا بالكتابين : القرآن والسنة[2] ، وقد كانت العلوم الدينية التي يزاولها الطلبة على ذلك العهد في أنحاء الأمبراطورية علاوة على علوم المهدي : عقيدة التوحيد ، وكتاب الطهارة وأعز ما يطلب[3] ، بالإضافة الى ذلك يدرس علم الأصول بما فيه الناسخ والمنسوخ[4] وعلوم القراءات[5] وعلوم الحديث[6] وكتاب الموطأ للإمام[7] مالك ، وكتب الفقه بما فيها فصول المعاملات والدماء[8] ، ومذاهب الأئمة بمنطوقها ومفهومها[9] ، هذا طبعاً الى كتب الأدب[10] العربي التي يعتبرونها المفتاح الحقيقي لمعرفة أسرار كتاب الله ، وبهذا يتأكد أن الدولة كانت حريصة على إشاعة الثقافة الدينية بمعناها الصحيح . وقد ظلت « العصمة المهدية »[11] مسيطرة في كل الرسائل الرسمية التي توجه بها الحكام لأطراف البلاد . وقد حرص الموحدون حتى في تصرفاتهم السياسية على أن يظلوا دائماً مقتدين بعمل السلف الصالح ولذلك نراهم عندما يقررون تسمية الخليفة بأمير المؤمنين برروا

(1) يذكر بعض المؤرخين ان « النواقيس » التي توجد بجامع القرويين جل بعضها من مرين لكنا على مثل اليقين من أن بعضها منذ أيام الموحدين .
ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص 43 - 46
التازي : القرويين في أحد عشر قرناً طبعة فضالة 1960 فضالة 18 - 19 - 20

(2) أثر عن الحافظ ابن الجد ان ابا يعقوب قال له : « ليس إلا هذا وهذا أو السيف » يعني القرآن والسنة وإلا السيف - المعجب : طبعة القاهرة ص 279 - الاستقصا ثان ص 112

(3) أقرأ صفحة 85 المن بالإمامة

(4) صفحة 88 - 99

(5) صفحة 88 - 152

(6) صفحه 99

(7) صفحة 156

(8) صفحة 159

(9) صفحه 257

(10) صفحة 152

(11) انظر صفحة 61 - 201 - 204 - 207 - 220

ذلك بأنه عمل كان اقتداءً بصنيع عمر بن الخطاب[1]

وإظهاراً منهم لاحترام الدين وتقديسه نجد أن كل المراسيم التي تصدر عن الدولة لا بد لكي تأخذ طريق التنفيذ أن تتلى على منابر المساجد وبين أساطينها[2] ، وكانت حدود الله تقام على العاصين والمخالفين فقد كانوا يشددون في ضرب أهل الفسق ، وكانوا يكسرون الخمور مما يتأذى به ويشتكى[3] منه ، وقد كان الفقهاء رجال دين وعمل معاً وهي ظاهرة ممتازة نلاحظها عندما نقرأ أن الفقهاء كانوا يشرفون بأنفسهم على التكسير والفلاحة والمساحة[4] ، ولكثرة ما سيطرت الروحيات عليهم نرى أن القادة كانوا لا يأتون عملاً مهما إلا بعد أن يقوموا بشعار الاستخارة[5] المأثور في سنة الرسول ، ومع كل هذا فإننا نلاحظ أن «الفكرة» التي دشن بها المهدي دولته أخذت سورتها تقل مع الزمان فالخليفة يستطيب إهداء الجواري الكعاب والسراري ذوات الحسن والشباب[6] ، والنساء اللاتي كن في مذهب المهدي ملازمات لعقر البيت أمسين « يبدين أصواتهن بالفرح وينطقن بالمستهتر بكل لفظ مشرح »[7]

* * *

إن كتاب المن بالإمامة يضيف إلى مصادر التاريخ الموحدي القليلة والقليلة جداً مادة خصبة ثرية ، فإلى جانب أخبار المهدي للبيذق و « رسائل موحدية » وكتاب الاستبصار ، ونظم الجمان لابن القطان ، والمعجب للمراكشي والبيان المغرب لابن عذاري — إلى جانب كل هذا نستطيع أن نعد هذا المجلد الثاني في أبرز الوثائق التي تتحدث عن التاريخ الموحدي حديث معاينة ومشاهدة

(1) صفحه 199 - 202

(2) صفحة 148

(3) انظر صفحه 40 - 41 - 87 - 281

(4) انظر صفحه س، 321

(5) انظر صفحة 261

(6) راجع صفحة 373

(7) راجع صفحه 514

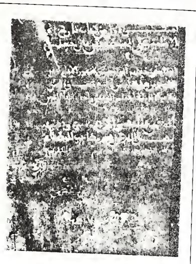
فلعل نشره اليوم يكون عاملاً على استكمال العناصر لبحث المدرسة الموحدية وعاملاً في الوقت نفسه على سد الفراغ الذي شعرنا به في بعض النواحي ، ولعل هواة التاريخ ، وهواة الآثار ، وهواة الشعر والترسل يجدون فيه ما كنا نؤمل أن يجدوا فيه من المتعة . إن هذا هو الرجاء الذي كان سلوتنا في الانقطاع إلى تحقيقه وجعله في متناول المهتمين بالتاريخ

السفر الثاني من كتاب

تاريخ المن بالامامة على المستضعفين
بان جعلهم الله ائمة وجعلهم الوارثين،
وظهور الإمام المهدي بالموحدين على الملثمين
وما جر مساق ذلك من خلافة الامام
الخليفة امير المومنين وآخر الخلفاء الراشدين

انهى تاليفه وابدع تحبيره وتصنيفه
عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي
رحمه الله

الصفحة الأولى من المخطوط



صورة لعنوان الكتاب

الصفحة الاخيرة من المخطوط

NCS/GH

DEPARTMENT OF ORIENTAL BOOKS
BODLEIAN LIBRARY
OXFORD

25 April, 1963.

Dear Sir,

I am sorry not to have replied earlier to your letter of 21 March 1963 in reference to MS. Marsh 433, of which you obtained photographs from us some time ago.

We gladly give you permission to use this manuscript for your forthcoming edition of the work. We should, however, be very grateful if you would refer to it in your edition by the full reference MS. Marsh 433. You should also at some suitable point in the edition make acknowledgments to the Curators of the Bodleian Library.

We look forward to receiving from you in due course the copies of the publication which you promise us.

Yours truly,

N C Sainsbury

Keeper of Oriental Books

Monsieur Tazi Abdelhadi,
Chef division Affaires Culturelles,
Le Ministre de l'Education Nationale,
RABAT,
Morocco.

صورة إذن مكتبة البودليان (اوكسفورد) بالنشر